المثقف العربي
والتحديات الديمقراطية

أ/ احمد قائد الأسودي

في ورقتي هذه ليس حديثا عن المثقف اليمني.. فالتحديات التي تواجه المثقف العربي في تعاطيه مع الديمقراطية هي نفسها في كل الوطن العربي.

فالديمقراطية التي تمارس في الساحات الديمقراطية شيء مختلف عن ما نسمعه وما نقرأه من مختصرات مخلة.. فالواقع يترجم لنا أنها غير تلك التي نسمع ترانيمها و أغنياتها و أهازيجها... وهي ليست تلك التي يتحدث عنها المثقف العربي .. فديمقراطية أمريكا مختلفة عن غيرها من بلدان الغرب.

يكفي أن تعرف أن الديمقراطية لا يسمح لها بالخروج من ساحاتها الخاصة(الغرب) التي وجدت من اجله.

و في ساحاتها الخاصة لا يسمح لها بتجاوز ما يريده الرئيس الذي أوصلته الديمقراطية إلى كرسي الحكم

كالديمقراطيةالأمريكية...فالديمقراطية على الأقل فبعض أبعادها الحيوية المهمة في ممارساتها تصنع اللحظة الدكتاتورية دستوريا للحاكم بأكثر مما نتصور و بأكثر مما نعرف.

فلا يجوز لديمقراطية أمريكا مثلا.. أن تقول لما يريده بوش (لا.). لماذا؟؟ لا ن بوش سيحطم أوصالها بالفيتو ومن ثم لا يفيد إجماع كونجرس ولا قرار شيوخ ولا ممارسة ديمقراطية.. ولا أي شيئ ف (لا) الديمقراطية (كنجرسيا) لا تمضي إلا بإذن الرئيس المنتخب فكل قرار يريد الكونجرس اتخاذه مهما كان وحتى وإن كان مصيريا أو يحدد مصير أمريكا عليه أن يأخذ في الاعتبار ل(لا) الرئيس (بوش)

فالديمقراطية لم تأت ببوش لتقول له (لا)..فبوش يمكنه اتخاذ اخطر قرار تحت مسؤوليته الشخصية ويمكنه أن يعطل أعظم قرار يفيد أمريكا بالفيتو فهل للمثقف العربي أن يفكر بديمقراطية مثلها في تعاطيها مع الحاكم العربي.. ولا تقول له(لا)... أليست تلك من التحديات الكبرى للمثقف العربي.؟

ومن هنا فا المفترض في المثقف العربي أن يدرك أنه ليس كل من ينادى بالديمقراطية عربيا يمكن أن يعتبره الغرب ديمقراطيا أو ينال عطفه ومساندته ,لأن الديمقراطية من وجهة نظر الغرب عربيا ليست سوى مبرر، خاصة في بلدان يعتبرها سوقا يختار لها السلطة التي تناسب مصالحه السياسية والاقتصادية والإستراتيجية

لقد وجد المثقف العربي نفسه تحت مطارق ثلاث السلطة

والجمهور(ألأمة) و الغرب ..مما أدى إلى انقسام المثقفين العرب المدافعين عن الديمقراطية إلى فئتين لم تسلما من الوقوع في المحنة.

الفئة الأولى: تدافع عن قضية الديمقراطية في مواجهة السلطة وتحتفظ بمواقف واضحة من مواقف الغرب إزاء جملة من القضايا الأساسية المتعلقة بإسرائيل والصهيونية والتيارات الإسلامية والأقليات والقومية العربية والتدخل والغزو والحرب على الإرهاب.

وهذه الفئة تواجه محنة قاسية كنتيجة حتمية لهذا الموقف الذي اختارته ,لأن الغرب يعتبر هؤلاء أعداءه ولا يعني بالنسبة له شيئا أن يكونوا ديمقراطيين، إذ الديمقراطية ليست مقصودة لذاتها، ولا ينبغي أن تصبح لعبة تحمل إلى السلطة القوميين والأصوليين المتطرفين ,أعداء ثقافة الغرب .

أما السلطة فلا تعتبر هذه الفئة من المثقفين أعداءها فقط ,لأنهم يتبنون قضية الديمقراطية ,بل أيضا لأنهم يرفضون كل مواقفها وخياراتها وسياساتها الإقليمية والدولية التي تستجيب في معظمها لمصالح ذاتية محدودة ومصالح الغرب.

وبالتالي فإن هذه السلطة مطمئنة إلى أن ممارستها القمعية ضدهم لا تثير أية انتقادات من جانب الغرب ,ومن المحزن حقا أن من يتوجهون إليها بالخطاب عاجزة رغم اقتناعها به ,عن تحقيق مفرداته على أرض الواقع لانعدام روح الفعل لدى الغالبية العظمى .

هذه الفئة من المثقفين المدافعين عن الديمقراطية نفسها تجد نفسها في موقف حرج ,فهم يتبنون الديمقراطية ويدافعون عنها باعتبارها المدخل

الأساسي لمعالجة مجمل المشكلات التي تعانى منها الأمة.

فتبنيهم للديمقراطية يقتضى منهم أن يدخلوا في صراع مع السلطة وأن يكونوا في الصفوف الأمامية ,فمحنتهم الحقيقية الكبرى هي أنه لا توجد صفوف بجانبهم ولا خلفهم .و مجاراة رؤية الغرب أو تحاشى الصدام معها بخصوص القضايا الجوهرية مقابل حماية قد يوفرها الغرب ستكون بالتأكيد على حساب مصداقيتهم لدي المخاطبين.

محنة مثل هذا الموقف لا تتمثل في غلاء الثمن الذي يدفعه المثقفون ولكنها تتمثل في اقتناع المثقف بصحته رغم عدم جدواه. فمشاعر التعاطف والإعجاب من قبل الغالبية المخاطبة لا يمنع ذلك العجز التام عن الفعل الذي لا يساوي شيئا في مواجهة السلطة من ناحية واستعداء الغرب من ناحية أخرى ,وهذا ربما ما حاولت أن تتجنبه الفئة الثانية من المثقفين.

الفئة الثانية تمثل أكثرية النخبة المثقفة المعارضة، وهى ترى أنه في ظل عجز الجماهير عن أداء دورها يحق للمثقف أن يحاول الاستفادة من حماية الفضاء الثقافي والإعلامي والسياسي الغربي في عصر العولمة ,باعتباره فضاء ضاغطا -متى أراد- على السلطة العربية أكثر من جماهيرها العاجزة الفاقدة لروح الفعل المؤثر.

لكن هذا الخيار وضع المثقف في موقف لا يقل صعوبة عن موقف الفئة الأولى وإن اختلفت الأسباب ,لأن المثقف الذي يتطلع إلى الحماية الغربية تسلبه هذه الدعوى الديمقراطية لأنه يراعي في خطابه جملة من المواقف والالتزامات التي تتناغم مع مواقف الغرب تجاه عدد من القضايا الكبار.

وهى القضايا نفسها التي تتهم الجماهير حكامها بالتفريط فيها وبالتواطؤ عليها مع الغرب.ومن هنا فخطاب المثقف سيبدو عبارة عن عمالة للغرب ,وليس تعبيرا صريحا عن الواقع ,ومن هنا فإن المثقف يفقد قيمته ومكانته لدى المتلقي..فعجز الجماهير وعدم قدرتها على الفعل لا يلغيان قدرتها على التقييم والنقد..فالجماهير العاجزة عن الفعل ليست عاجزة عن التقييم والنقد أو عن معرفة ما ترفضه وما تطمح إليه ,فهي تحدد موقفها من صاحب الخطاب على ضوء ما تريده وما ترفضه.

وفي هذه الحالة فالمثقف ليس سوى متسابق آخر نحو الغرب مثله مثل الحاكم ,ولكن بصيغة أخرى تتناسب مع المرحلة.

وهكذا تجد هذه الفئة من المثقفين نفسها..أمام جماعة عاجزة عن الدفاع عن طموحاتها,

لا تغفر لهؤلاء محاولتهم مراعاة جملة الغرب السياسي والغرب الثقافي بحجة الدفاع عن الديمقراطية للحصول على بعض الحماية الإعلامية والدعم السياسي ,لمواجهة سلطة مستبدة ومتوحشة ليس لها رادع مادي ولا أخلاقي.

هذه المحاولة من جانب المثقف للاستفادة من مظلة الحماية التي تقدمها مؤسسات الغرب ومنظماته وفي في ظل غياب الفعل الجماهيري ,أعطت الحاكم الدكتاتور الحجة لاتهام هذا المثقف بالتواطؤ مع القوى الأجنبية ضد الوطن ,ولاسيما عند ما تتعارض مصلحة هذا الحاكم في البقاء في السلطة مع رغبة الغرب في إحلال بديل عنه ,

تماما مثلما بدا واضحا من نوايا الولايات المتحدة تجاه بعض الحكام العرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول و احتلال العراق.

لقد أدت محاولة هؤلاء المثقفين في ظل غياب الفعل الجماهيري باستثمار المجتمع المدني الغربي للدفاع عن الديمقراطية في مواجهة الأنظمة السياسية العربية أن يقعون في التهمة نفسها التي توجهها الجماهير إلى الحكام.

عجز الجماهير عن مناصرة الخطاب الديمقراطي الذي يعبر عن طموحاتها يجرد هذا الخطاب من جدواه وفاعليته مهما بلغت مصداقية تعبيره ,ة أحيانا قد يبدو وكأنه خطاب خيالي .

لا خلاف حول تأثير الغرب على مصداقية خطاب المثقف العربي إلا أن السبب الجوهري الذي يقف وراء محنة المثقف وخطابه هو انعدام روح الفعل لدى الغالبية العظمى من أفراد الأمة.فعجز الأمة عن الفعل هو السبب الحقيقي في محنة الفئة الأولى من المثقفين الذين يدافعون عن الديمقراطية في مواجهة السلطة ويرفضون التحالف مع الغرب على حساب ما يعتقدون أنه قضايا مصيرية.

وكذلك الأمر بالنسبة للفئة الثانية ,فالكثير منهم يتجهون للبحث عن مظلة الحماية لدى الغرب لأن الأمة عاجزة تماما عن توفير أي نوع من الحماية لهم.

ولعل هذا العجز التام هو الذي أعطى للكثير من المعارضات العربية مسوغ قبول التدخل الغربي عسكريا للإطاحة بالأنظمة السياسية ,وحجتهم

في ذلك أنهم لا يرون أملا في أن تحرر الأمة نفسها ,رغم حلمها بذلك.

فهي أمة تستعمرها أنظمة استبدادية غاشمة ,وقد يتيح لها الوجود العسكري والسياسي الغربي وضعا ملائما لتطور مؤسساتها وهياكلها السياسية مما لا يتيحه لها هذا النوع من الأنظمة.

إن هذا الواقع العربي الذي أنتج مثقفا يبشر بالديمقراطية بلا دعم وسند جماهيري ,وآخر يبحث عن مظلة حماية لدى الغرب ,ومعارضا لا يرى حلا لمشكلة الديمقراطية عدا الغزو العسكري لبلاده ,هذا الواقع لا يمكن أن ننسبه فقط إلى سطوة السلطة وهيمنة الغرب أو إلى نقص في دور المثقف.

بل هو يأتي قبل هذه العوامل وبعدها من عجز الأمة وضعف دورها بسبب انعدام روح الفعل لدى الغالبية العظمى من أفرادها.

عجز الجماهير عن مناصرة ودعم الخطاب الديمقراطي الذي يعبر عن طموحاتها يجرد هذا المثقف من جدواه وفاعليته مهما بلغت مصداقية تعبيره عن الواقع ,حتى ليبدو وكأنه مثقف واهم وخيالي.

تلك هي التحديات الكبرى لدى المثقف العربي في خطابه الديمقراطي .. و إذا أضفتا إلى ذلك أن المشكلة الكبرى والتحدي الكبير يكمن في أن الديمقراطية لم تصبح بعد مشروعا حقيقيا لدى الفئتين من المثقفين آنفة الذكر.. لأنها ليست من إنتاجهم .فالديمقراطية إنتاج غربي ومشروع مثقفي الغرب

فإن التحدي الديمقراطي للمثقف العربي عموما والمثقف اليمني خصوصا يصبح بالغ الخطورة. .إلى أي مدى يمكن للمثقف اليمني مثلا ابتكار

ديمقـراطيـتـه الخـاصة به؟؟...تماما مـثل مـا ابتكر المثـقف الغـربي فـصـاغ ديمقـراطيـتـه الخـاصـة به فـاليـمن تحـتـاج ديمقـراطيـة يمنيـة وحسب..فـالديمقراطية الغـربيـة ليسـت كتـابا واحدا بل كـتب متعدده بتعد بلدانه وشعوبه.